جامعة الانبار/ كلية التربية للبنات

قسم التاريخ / تاريخ العراق الحديث(١٢٥٨-١٩١٨م) /المرحلة الثالثة .

المحاضرة الاولى / الغزو المغولي للعراق

مدرس المادة :- م.م. سهاد جاسم محمد

الغزو المغولي للعراق ...

اسباب سقوط بغـــداد بيد المغول :

كثـرت التسـاؤلات عـن انهيـار الدولـة العباسـية امـام الهجـوم المغـولي عـام ٦٥٦هـ /١٢٥٨م وبـدل مراجعـة اسـباب هـذا الانهيـار ذهـب المؤرخـون العـرب المسـلمون وغيـرهم الـى البحـث عـن ذرائـع لتبريـر موقـف الخلافـة العباسـية ودور الخيانـة والمـؤامرة بـذلك الانهيـار وتبرئـة الخليفـة مـن تحمـل المسـؤولية ومحاولـة الصـاق التهمـة بهـذا وذاك وعلـى ضـوء ذلـك نحـاول جهـد الامكـان ايجـاز اهـم اسـباب انهيـار كيـان الدولـة العباسـية المتداعي اصلا امام جيوش هولاكو ومن تحالف معه.

اولا :- تهاون الخلفاء العباسيين بالمغول:

بـدأ الخطـر المغـول يهـدد العـالم الاسـلامي منـذ عـام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م منـذ غـزوهم بـلاد خـوارزم واسـقاط دولـتهم وبـدأت الالـة العسـكرية المغوليـة تقضـم بـالبلاد الاسـلامية بلـدة تلـو اخـرى ولـم يبـد الخلفـاء العباسـيين الاربعـة الـذين عاصـروا الاحـداث (الخليفـة الناصـر لـدين الله ت٦٢٤هـ والظـاهر بـأمر الله ت٦٢٥هـ والمستنصـر بـالله ت٦٤١هـ والمستعصـم بـالله ت٦٥٦هـ) اي اهتمـام بالاحـداث بـل كـانو يرسـلون رسـائل التهـاني للمغـول علـى اسـتباحة الـبلاد الاسـلامية الشـرقية ولـم يكـن لـديهم اي ادراك للخطـر العميـق الـذي يحـدق بـدولتهم ولـيس هنـاك مايـدل علـى وضـعهم سياسـة واضـحة المعـالم لـدرء الخطـر القـادم مـن الشـرق، ولـم يحـاولوا توحيـد صـفوف المسـلمين وتعبئـة قـدراتهم العسـكرية للمواجهـة بـل اتسـمت سياسـتهم بـالتردد والمحـاولات الخجولـة لاعـداد قـوات صـغيرة وارسـالها الـى منـاطق الخطـر وسـرعان مـاتعود مـدحورة امـام اي قـوة معاديـة وزيـادة فـي التفرقـة حبـك الدسـائس بـين حكـام

المسلمين وابنائهم بل يقول ابن الاثير ان الخليفة الناصر قبيح السيرة ظلوم اشتط في فرض الضرائب واخذ اموال الناس حتى خرب العراق في عهده.

اما الظاهر فرغم انه حسن السيرة ورد مظالم الناس وابطل المكوس لكن حكمه لم يدم الاسنة واحدة دون ان يضع سياسة واضحة ازاء المغول وعندما تولى المستنصر بالله ورث عن جده اموالا طائلة وحكم البلاد مدة طويلة قاربت ١٦ عاما وله انجازات كثيره اهمها الجامعة المستنصرية غير انه لم يظهر اي اهتمام في قضية الخطر القادم وفي عهده انتهى الجدار العازل بينه وبين المغول بعد سقوط الدولة الخوارزمية ومقتل سلطانها جلال منكوبرتي سنة ٦٢٨هـ /١٢٣٠م واصبح الطريق سالكة الى بغداد ومنذ تلك السنة بدأت الهجمات المغولية على اطراف العراق بين فترة واخرى.

وعندما اعتلى الخليفة المستعصم بالله عرش الخلافة لم يكن شخصية تصلح لهذا المكان ولم يكن رجل الساعة فقد وصفه المؤرخون بانه لين العريكة مستضعف الوأي ضعيف التدبير نازل الهمة غير عارف بمشاكل عصره مغرما باللهو وسماع الاغاني وينقل انه طلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ جماعة من المطربين في وقت وصل رسل هولاكو اليه يطلب منه منجنيقات والات حصار فقال لؤلؤ لمن معه انظروا الى المطلوبين وابكوا على الاسلام واهله، وكان اسباب ضعفه هي عادة العباسيين بسجن ولي العهد او وضعه مع الحريم لهذا امضى سنين طويلة في السجن فتولدت عنده ضعف الشخصية واضافة الى هذا كان بخيلا وراغبا في جمع المال. امام هذا التهاون لمدة تزيد عن ٤٠ سنة عجز اربعة خلفاء عن ادراك الخطر والاستهانة به فمن المؤكد اصبح الانهيار مجرد مسألة وقت لا اكثر.

ثانيا :- ضعف المؤسسة العسكرية:-

شهدت المؤسسة العسكرية ضعفا متدرجا منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله وكان الجيش بقدر بمائة الف وبدأ العدد يتناقص بالتدريج ووصل في عهد المستعصم بالله الى عشرة الاف ومن شدة بخله وعدم انفاقه على الجند فقد تفرق الكثير منهم ولحقوا بأمصارهم ومن تبقى فقد اخذ الجند يطرقون الاسواق بحثا عمن يستعين بهم في نقل

بضاعة او ايصال طلب وحتى تنظيف الحارات كي يحصلوا على قوت يومهم وعيالهم في وقت يقترب الخطر من العراق وكلما حدثوا الخليفة عن الخطر كان جوابه (ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي اذا نزلت لهم عن باقي البلاد). وبدل الانفاق على الجيش كان ينعم على الجواري بالذهب والفضة.

ثالثا:- تولية السفهاء والجهلة امور العامة:-

احاط الخليفة المستعصم بالله نفسه بطبقة من المستشارين المنحدرين من اوساط منحطة ومن المماليك الشراكسة وقد سلطهم على رقاب الناس والاشراف، وكان من اهم المقربين للخليفة صديقه القديم عبدالغني بن الدرنوص الذي بدء حياته حمالا في سوق بغداد وقد نجح ان يكون احد براجي الخليفة المستنصر بالله وتقرب الى ولده ابي احمد عبدالله الذي اصبح فيما بعد الخليفة المستعصم بالله وقد خدمه ابن الدرنوص يوم كان سجينا وعندما اصبح خليفة جعله مقدم البراجين ثم اختصه لنفسه وجعله يولي ويعزل من يشاء وصار من السلطان ان الوزير ويخلي له المكان لئلا يشكوه للخليفة ويعزل وقد لقب ب نجم الدين الخاص واضافة الى هذا كان الدويدار الصغير قائد حرس الخليفة وهذا مملوك ناصب الوزير مؤيد الدين بن العلقمي العداء وقد جعله الخليفة مستشارا عسكريا ونائبا عنه للتفاوض مع هولاكو قبل وصوله الى بغداد ومن الذين يهونوا امر هولاكو لدى الخليفة ويعمل بالضد من مقترحات الوزير وكان يلتزم السفهاء والغوغاء الذين يقومون بإعمال السلب والنهب ايام الفيضان سنة ٦٥٤هـ ونصبه الخليفة فيما بعد قائدا للجيش وقد اخطأ التصرف وانهزم امام المغول وتحطم الجيش . ان تولي مثل هذه الشخصيات اثار نفور العامة والخاصة وعلية القوم من حول الخليفة الذي صم اذنيه عن نصائح الوزير والاعيان بسوء سلوك حاشيتهِ .

رابعاً : الفتن والحروب الطائفية:-

شهدت بغداد حربا طائفية ضروس بين محلاتها بعد سيطرة الحنابلة على مقاليد الامور الدينية فأصبحت منظر الغارات على الاحياء ومناظر القتل والسلب والنهب اعتيادية وعمت الفوضى وعجزت الحكومة عن ضبط الامن والنظام في العاصمة ففي

سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م حدثت فتنة بين محلتي المأمونية وباب الازج في بغداد بسبب عادة قديمة في صيد السباع فقتل جماعة من الناس ونهبت المحلات ولما تدخل حاجب النوبي (مدير الشرطة) للحفاظ على الامن ضربوه بالحجارة ونزعوا عمامته. وبعدها حدث مشكلة بين محلتي المختارة وسوق السلطان حتى قتل جماعة / وخرج سكان محلة القرية على محلة قطفتا، وقد ادت تلك الفتن الى انتشار عصابات اللصوص واخذوا اموال الناس ولم تسلم منهم حتى المدرسة المستنصرية وتعاظمت الامور واخذ اللصوص يتعدون على بيوت الامراء والاسر الكبيرة حتى اضطر الاثرياء الى دفع اموال لبعض العصابات لتوفير الحماية بعد ان عجزت اجهزة الدولة من ضبط الامن. ووصل الامر اكثر سوءا عندما استولى بعض الاشقياء على مدرسة التاجية واخذوا يتبايعون فيها واسكنوا فيها النساء وتحولت من مكان للعلم الى وكر للرذيلة.

وكثر فساد العيارين واخذوا يسلبون عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات ويقتلون من يظفرون به من اتباع صاحب الشرطة. وفي سنة ٧٥٣هـ ١٢٥٥م حدثت فتنة طائفية بين محلة باب البصرة الحنبلية المذهب ومحلة الكرخ الشيعية المذهب وكلاهما في غرب بغداد وتدخل الجيش الى جانب اهل باب البصرة وتكرر المشهد في السنة التالية واستبيحت محلة الكرخ واخذت النساء سبايا والرجال اسرى وحملوا الى دار الرقيق وسفكت الدماء وتدخل الخليفة شخصيا لإعادة اطلاق سراح الاسرى والسبايا. وهذا هدد السلم المجتمعي بالتفكك واصبح الناس يتطلعون للخلاص من الطبقة الحاكمة وتعدياتها.

خامسا:- الترهل الاداري للدولة:-

كانت الادارة العباسية قبيل الاحتلال المغولي وسقوط الدولة مترهلة جدا وتوجد دوائر وموظفين لا حاجة للحكومة بهم او اصبحت دواوينهم غير مجدية اذ ان النظم الادارية والدواوين العباسية تمثل تطورا املته الظروف التاريخية لإمبراطورية امتدت من الصين شرقاً الى افريقيا غرباً في عهدها الذهبي وفي ظل خلفاء اقوياء مثل هارون الرشيد والمأمون وغيرهم ، اما في عهد المستعصم تحولت تلك الامبراطورية الواسعة الاطراف الى دوله صغيرة تشمل العراق العربي واربيل وعربستان ولا يملك الخليفة بها سوى تلك

الصفة المقدسة عند المسلمين كونه خليفة واحترامه وطاعته شكلية نظرية وليس واقعية في كثير من الاطراف. وهذ التقلص بالمساحة تبعه نقص في الامكانيات البشرية والمادية لم يخطر ببال الخليفة ولا مستشارية للقيام بإعادة النظر في ترشيق الادارة فبقيت الدواوين على حالها منذ عشرات السنين ولا فائدة منها سوى انفاق الاموال على شاغليها دون جدوى اقتصادية. ولهذا اقلت كاهل ميزانية الدولة واصبحت ابواباً للتبذير وبالتأكيد ساهمت بإضعاف الدولة.

سادساً : اهمال الزراعة والري والتجارة:-

كان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي كان ازدهارها يقوم على نظام الري وفي العصر العباسي الاخير اهملت مشاريع الري فتدهورت الزراعي وقل الانتاج وبدورها تقلصت الواردات وحدثت فيضانات كثيرة ادت الى تدمير قنوات الري والسدود دون ان تكلف الحكومة نفسها بإصلاح ما دمرهُ الفيضان ونتيجة لذلك تدهورت التجارة لتدمير الجسور وقلة الواردات وعدم توفر الامان كما مر بنا سلفا ونجم عن ذلك كله حدوث المجاعات بين الناس . يتضح مما سبق ان الدولة العباسية وصلت الى مرحلة عبارة عن بيت خاو آيل للسقوط امام اي عاصفة مهما كانت بسيطة فكيف وجيوش هولاكو الجرارة والقوة الغاشمة التي اتسمت بها تلك الجيوش ، فمن المؤكد انهيارها لامحالة وخاصة ان اوامر عليا صدرت الى هولاكوا وقراراً من الخان الاكبر مانغو خان (٦٥١هـ /١٢٥٣م) في الدولة المغولية باحتلال العراق والبلاد العربية .

من يتحمل مسؤولية سقوط بغداد؟

كثر الحديث والجدل حول من يتحمل مسؤولية ما حدث في عام (١٢٥٨م/٦٥٦هـ) ومنهم من القى باللائمة على الوزير مؤيدالدين أبن العلقمي ومنهم من قال بتعاون النصارى وذهبت الاتهامات يمينا وشمالا ولكي نطلع على الحقائق كما هي يمكن القول ان الجميع يتحمل المسؤولية واولهم الخلفاء العباسيين الاربعة المتأخرين كلهم الناصر لدين الله والظاهر بأمر الله والمستنصر بالله والمستعصم بالله، اذ لم يكن الغزو المغولي للعالم الاسلامي مفاجئاً بل بدأ منذ سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م لدولة خوارزم الاسلامية في الشرق ووصلت طلائع المغول اطراف العراق بعد سنتين من اسقاط الدولة الخوارزمية ولم يبدو على الخلفاء العباسيين اي اهتمام بالأمر والخطر الداهم بل كانوا يتبادلون التهاني مع اباطرة المغول عند كل نصر يحرزه المغول ضد الامارات الاسلامية بل ان الناصر لدين الله وهو اقوى الخلفاء الاربعة كما يذكر المؤرخون تفاهم مع المغول حول اقتسام ممتلكات الدولة السلجوقية ويقول عنه جلال الدين منكوبرتي اخر سلاطين خوارزم (كان السبب في هلاك ابي ومجيء الكفار الى البلاد الاسلامية ووجدنا كتبه وتواقيعه بالبلاد والخيل والخلع للمغول) هذه صورة لدور الخليفة في اضعاف العالم الاسلام والقضاء على اماراتهم . وكان نهماً جشعا لكسب المال ويقول عنه ابن الطقطقي(كان يتعسف في جمع المال وكان لديه بركة مملوءة بالذهب وظل يعوزها القليل فكان يقول أترى اعيش حتى املأها) هذا حلم الخليفة ان يملأ البركة ولايأبه للخطر المحدق به. اما الظاهر بأمر الله (١٢٢٥-١٢٢٦م/٦٢٢-٦٢٣هـ) فلم يعمر طويلا ولم يعرف عنه اتخذ اجراءات مفيدة لمعالجة الخطر المغولي وتوفى بعد بضعة اشهر.

وكان الخليفة الثالث منهم المستنصر بالله (١٢٢٦-١٢٤٢م/٦٢٣-٦٤٠هـ) يتصف بالحكمة والشجاعة والعدل وحب العلم وحكم مدة طويلة كافية لتدارك الامور لكنه اكتفى ببناء المساجد والربط واسس المدرسة المستنصرية غير انه لم يظهر ما يدل على اي ادراك لعمق الخطر المغولي على العراق الذي كانت مواجهته اهم واجب يقع على عاتق الخليفة وفي عهده سقط الدرع الذي يقي العراق من الخطر سنة

٦٢٨هـ/١٢٣٠م وهو سقوط الدولة الخوارزمية واخذت طلائع المغول تهدد اطراف العراق وتتغلغل في العراق العجمي (شمال) وكانت سياسته معهم المهادنة والمصانعة والاسترضاء ولذلك ترك لولده المستعصم بالله (١٢٤٢-١٢٥٨م/٦٤٠-٦٥٦هـ) ارثا مثقلاً بالأخطار. وجاء الخليفة الرابع والاخير في ظروف حالكة حيث تمر البلاد بدور الانحلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والانقسام الطائفي ولم يكن ذلك الرجل القادر على مواجهة الاخطار او رجل الساعة ويصفه المؤرخون (كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير مغرما باللهو وسماع الاغاني يبذل الاموال لجلب اي مغنية تطربه ويكتب الى سلطان بلدها بإرسالها لهُ) وفي ضوء ذلك يذكر المؤرخون ايضا حكاية له مع بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل اذ كتب اليه (بلغني ان في بلادكم قيان –مغنيات– حسان فجودوا علينا بهن) وصادف وصول رسول الخليفة مع رسل هولاكو الى صاحب الموصل يطلب منه منجنيقات واسلحة حصار مرفقة بالتهديد والوعيد وامام هذا الموقف قال لؤلؤ (انظروا بالمطلوب وابكوا الاسلام واهله) اي ابعثوا المغنيات . وكان بخيلا ولم ينفق على الجيش حتى تفرق جنوده وهجروا البلاد والخطر على الابواب.

وفي مقدمة سلم المسؤولية لسقوط بغداد حاشية الخليفة وهم المماليك الشراكسة ورئيسهم ابو الميامين مجاهدالدين ايبك الدويدار الصغير وابن الدرنوص حاجب الخليفة والامير ابي بكر ابن الخليفة وهؤلاء يمثلون الطبقة الاكثر فسادا في الدولة حيث عاثوا في الارض فساداً وارتكبوا المعاصي والجرائم مستغلين مناصبهم الحكومية وشكلوا كتلة او جبهة تكن العداء للوزير مؤيد الدين ابن العلقمي. الذي بذل جهوداً لنصح الخليفة بالاستعداد العسكري وبنفس الوقت الاسترضاء للمغول.

الوزير ابن العلقمي اثنى عليه على شخصيته المؤرخين المعاصرين واسمه محمد بن احمد بن العلقمي عربي من بني اسد من ناحية النيل احد نواحي الحلة ووصفوه بالعقل والحكمة والعلم وحسن التدبير ووصفه ابن الجوزي الحنبلي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) (كان رجلا فاضلا عفيفا قارئا للقران) وكذلك الخزرجي (ت٨١٢هـ/١٣٦٢م) ولقب العلقمي جاءه من والده لتطهيره نهر العلقمي في كربلاء. كانت له مكتبة كبيره تضم عشرة الاف

مجلد وكان استاذا للمدرسة المستنصرية فترة طويلة. ومن كل هذا يمكن القول ان مسؤولية سقوط بغداد يتحملها الجميع ولا تقع على عاتق شخص واحد واتهام الوزير العلقمي بهذا الامر جاء لأسباب طائفية وبعد الحدث بثلاث قرون.

مراحل الغزو المغولي.

تقدمت طلائع المغول الى بغداد من جهة الانبار في محرم ٦٥٦هـ/١٢٥٨م واستخدم المغول الخديعة العسكرية عندما انهزموا بالبداية امام قوات الخليفة ليستدرجوها من الى مناطق قتل ثم فتحو السدود لإغراق تلك القوة ولتهلك قوة الخليفة لتتقدم القوات المغولية نحو بغداد من اتجاه آخر حتى وصلوا الجانب الغربي من المدينة ثم تقدمت قوات اخرى من خانقين لتنزل الجانب الشرقي وفي اواخر محرم سقطت بغداد بيد المغول والقي القبض على الخليفة وحاشيته ودخل هولاكو دار الخليفة وهاله منظر الكنوز والجواهر والدرر والحلي والثياب النفيسة فخاطب الخليفة وعنفه على عدم استخدامه كنوزه في تهيئة جيش يمنع عنه عدوه . وهناك شروحات كثيرة في بطون الكتب عن مجريات الاحداث لا يسع المجال لذكرها . المهم قتل الخليفة وحاشيته واستبيحت المدينة واطنب البعض في ذكر من قتل فمنهم من قال ثمانمائة الف وبعضهم اكثر والمنصفين ذكرو انهم لم يتجاوزوا تسعون الف .

الادارة المغولية في العراق .

تحول العراق من دولة مستقلة الى ولاية تابعة الى امبراطورية مترامية الاطراف وقرر هولاكو تنظيم الادارة في العراق والملفت للنظر ان المغول لم يستخدموا سياسة الاقصاء والاجتثاث ضد الادارة القديمة بل ان تكون ادارة العراق من حاكم مغولي هو علي بهادر الخراساني بمنصب الشحنة وابقى الكثير من الادارة السابقة مثل صاحب ديوان الخليفة فخرالدين الدامغاني بقي في منصبه والوزير ابن العلقمي بقي وزيراً، وبعد وفاته الغي المنصب ونجم الدين بن احمد بن عمران صدراً للأعمال الشرقية وقاضي القضاة

عبدالمنعم البندنيجي على القضاء والحاجب تاج الدين علي بن الدوامي بقي في منصبهِ وكل هؤلاء من اهل العراق والعارفين بشؤونه واكمل بقية الادارة من العراقيين .

المصادر :-

١- أبرار كريم الله، من هم التتار ، ترجمة رشيدة رحيم الصيروتي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٤.

٢- أحمد عبد الكريم سليمان ، المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس(١٢٥٠- ١٢٧٧م) القاهرة ،دار النهضة العربية ، ١٩٨٠م .

٣- اكرام محمد علي خلف ، أثر المؤامرات في سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، دراسة تأريخية ، مجلة ديالى للبحوث الانسانية ، العدد ٤٩ لسنة ٢٠١١.

٤- ايناس سعدي عبدالله ، تاريخ العراق الحديث (١٢٥٨-١٩١٨م) الطبعة الاولى، دار ومكتبة عدنان للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤.

٥- حامد زيان غانم ، صفحة من تأريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ،١٩٧٨م .

٦- صبحي عبد المنعم محمد ،سياسة المغول الايلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام ، القاهرة ، العربي للنشر والتوزيع ،٢٠٠١ .

٧- عادل اسماعيل محمد هلال ، العلاقات بين المغول واوربا واثرها على العالم الاسلامي ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ،١٩٩٧.

٨- عماد عبد السلام رؤوف، الجيش – القوى والمؤسسات العسكرية ، بحث ضمن موسوعة حضارة البعراق ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ،١٩٨٥، الجزء العاشر.

٩- فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ ، بيروت ، دار النهضة العربية ،١٩٨٠، الجزء الاول .

تاريخ العراق الحديث